يحمل مصباح علاء الدين وآخر يحمل مصولا ومجرفة.

وعدت بخواطري الى مشهد دارت حوادثه في مقبرة أخرى بغزة حيث تسنى لي مراقبة ذاك الحدث صباح يوم وصولي . كنت في أحد مخيمات اللاجئين وقد تحلقت حولي جمهرة من الاطفال المتلئين حماسة وانفعالا . وزعق الاطفال من حولي بأصواتهم الحادة : هل شاهدت « القبور المتحركة » ، « اعجوبة مقبرة الشجاعية » ، « انهم الفدائيون ... قبورهم تتحرك . اذهبي الى المقبرة » .

انا لست ممن يؤمنون بالمعجزات . غير اني ذهبت، برفقة بعض الاصدقاء من القدس ، الى مقبرة الشجاعية من باب اولى لان المعجزة ، أيا كان أسلوب صنعها وتحقيقها هي متنفس مرغوب فيه لكسر حدة رتابة الحياة اليومية القاتمة في ظل الاحتلال . كانت هنالك حشود من الناس تحيط بالأضرحة الحجرية الاربعة المتباعدة والتي كانت تتسامق فوق مستوى صفوف القبور الكثيرة الاخرى المتواضعة التي لم تعد كونها اكواما ترابية مسواة باليد . وارشدنا غلامان الى اول تلك « القبور المتحركة » فشققنا طريقنا خلال جموع الزائرين ، الذين اصبحوا يحجون الى هذه القبور . وقد اوضحوا لنا قائلين : « شواهد القبور تتحرك » ، « سوف ترون » كنت اقرأ اسم الشهيد المنقوش على شاهد قبره — حسين محمد سلمان ابو حنتوش — عندما ادركت ان شاهد القبر كان يميل قليلا من جهة الى اخرى . وانتقلنا بعدها من قبر الى آخر ، فتبين لنا ان القبور الاربعة جميعها « تتحرك » متمايلة كبندول الساعة تارة نحو اليمين واخرى نحو اليسار ، وفي احدى الحالات الى الامام والخلف. وكان الزوار والحجاج يقطعون صلواتهم وتأملاتهم واحاديثهم الهامسة ليسألونا اذا كنا « قد شاهدنا » وليتناقشوا في سر هذه الظاهرة .

وقد رووا ان صبيا صغيرا كان اول من اكتشف ظاهرة تحرك شواهد القبور قبل نحو ثلاثة اسابيع، وسرعان ما ذاع الخبر ، واخذ الناس يتوافدون الى المقبرة من مدينة غزة في باديء الامر ، ثم من القطاع بأجمعه وحتى من القدس والضفة الغربية. وفسر البعض تلك الظاهرة على انها معجزة . فالفدائيون الاربعة يتململون في قبورهم «ويتكلمون» أنهم يحاولون ان ينقلوا الينا رسالة خاصة . اما البعض الآخر ، فقد خالها أمارة او رسالة من الله . وتساءلت عما كان يقوله الفدائيون او الله فاجابوني قائلين : ان الفدائيين يحثون الناس على مواصلة النضال وتأدية الرسالة او لعلهم كانوا يقولون « آن اوان العمل » . كما قالوا : ان الله بهذا يطمئن الناس بأن الفدائيين لم يموتوا وان الخلود هو نصيب اولئك الذين يضحون بأرواحهم . وان الله يحث الناس على الصمود والمقاومة .

ولم يكن عنصر الاعجاز الخارق للطبيعة في هذه الظاهرة هو الذي استأثر بالقسط الاوفر من اهتمامي — وهي ظاهرة ناتجة عن خدعة بصرية تسببها الظلال المتحركة للاغصان المتدلية فوق القبور — بل ان ما استأثر باهتمامي هو التأويلات التي يسبغها اهالي غزة على هذه الظاهرة . فتلك التأويلات انما تعكس حقيقة مشاعر سكان المناطق المحتلة وحالتهم النفسية . فقدان الثقة بعالمنا هذا بما فيه من قوى وهيئات دنيوية ، وفقدان الثقة بالانظمة العربية وجيوشها ، وبالدول الكبرى وهيئة الامم المتحدة ، مثلما ان هذه التأويلات هي الهام لمشاعر الايمان والامل بالانتصار المحتوم « للانسان المستضعف » والقوية والنضال والتضحية . ومضت سيارة الجيب مسرعة في شارع المختار في طريقنا الى عسقلان : سبات، وهدوء، ولا اشارة تنبيء باعمال العنف التي جرت في الليلة السابقة . وتساءلت لدى مرورنا بمقر الامن العام : ترى كم من الناس قد سيقوا الى هذا المقر لاستجوابهم ومن ثم احتجزوا واوقفوا؟ وكم من الغزاويين قد أمضى ليلة مشهدا قلقا على مصير احد ابنائه او والديه او ذويه او بسبب ترقبه طرقة على الباب قد تعني تفتيشا روتينيا او زيارة لمقر الامن العام للتحقيق معه — وهي قد تنتهي بالافراج عنه بعد احتجازه بضعة ساعات ولربما امتدت اياما او شهورا او سنينا . وعندما مررنا بنهاية الطريق المؤدية الى مقبرة الشجاعية ساءلت نفسي هل ما زال الفدائيون يتململون في قبورهم ؟ ترى هل سيتسنى لهم يوما ان يخلدوا الى السكينة هانئين مطمئنين !

ايرين بيسون